تجربتي مع القرآن الكريم

تدرجاً وتدبراً



من إصدارات رابطة علماء فلسطين - فرع خان يونس



تدرُّجاً وتدبُّراً

فضيلة الشيخ الدكتور

يونس بن محيي الدين الأسطل

الطبعة الأولى

1438 هـ 2017 م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾

(سورة الزمر: الآية 23)

فهرس الموضوعات

المقدمة:

الحمدُ للهِ الذِي أورثَ الكتابَ الذينَ اصطفَىٰ مِن عبادِه، فمنهُم ظالمٌ لنفسِه، ومنهُم مقتصدٌ، ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله، ذلكَ هو الفضلُ الكبيرُ، جنّات عدنٍ يدخلونها، يُحَلَّوْنَ فيها من أساورَ من ذهبٍ ولُؤْلُؤاً، ولباسُهم فيها حريرٌ، والصّلاةُ والسّلامُ علىٰ مَن أَوْحَىٰ إليهِ ربُّهُ رُوحًا مِن أمرِه، ما كان يدرِي ما الكتابُ ولا الإيمانُ، ولكنْ جعلَه نوراً يهدي به من يشاءُ من عبادِه، وما كان يرجُو أن يُلقَىٰ إليه الكتابُ إلا رحمةً من ربِّه، وليكونَ للعالمين نذيراً، بل ما أرسلهُ إلّا رحمةً للعالمينَ، وما كان يتلو مِن قبلِه من كتابٍ، ولا يَخُطُّه بيمينِه؛ إذاً لارتابَ المُبطِلون، بل هو آياتٌ بيناتٌ في صدور الذين أُوتُوا العلمَ، ورضيَ الله عن السابقينَ الأوّلينَ من المهاجرينَ والأنصارِ، والذين اتَّبعوهم بإحسانٍ، ورضوا عنه، وغفر لنَا ولإخوانِنَا الذين سبقونا بالإيمانِ، ولمْ يجعلْ في قلوبنا غِلّاً للذين آمنوا، إنه غفورٌ رحيمٌ.

أما بعد:

فقدْ تَفَتَّحتْ عَينايَ علىٰ الدنيا، فوجدتُ والدتِي -رحمها الله- حريصةً علىٰ تحفيظِي بعضَ قصارِ السُّوَرِ، فضلاً عن مقاطعَ أُخرىٰ كانتْ تحفظُها؛ كقصةِ أيوبَ-عليه السلام- مِن سورةِ الأنبياءِ، وغيرِها، الأمرُ الذي جعلنِي متميّزاً بين أقرانِي، فلا تكادُ تخطئُني رتبةُ الأولِ علىٰ صفِّهِ، وأحيانًا علَىٰ المدرسةَ، إلا في الثانوية؛ حين اختلطت مدارسُ وكالةِ الغَوثِ بمدارسِ الحكومةِ، ورغمَ انشغالِي بمزرعَةِ والدي عصراً بصورةٍ شبهِ يوميةٍ؛ فإنّه لم يَفُتْني أن أزاحِمَ العشرةَ الأوائلَ؛ بل لم أكنْ آخرهم، ولو مرةً واحدةً.

وقد كان لشقيقي الكبير محمد أبي عبد الله أثره البالغ عليَّ، وعلَىٰ إخوتِي في الاهتمامِ بتلاوةِ القرآنِ مجوَّداً، وحفظِ الكثيرِ منه؛ فضلاً عن برنامجِ التلاوةِ اليوميِّ، وخاصةً بعدَ صلاةِ الفجرِ، مما أعانني علىٰ خَتمِه كاملاً عشراتِ المرات قبل أن أبرحَ التعليمَ الأساسِيَّ؛ فإذا بمعظمِ الآياتِ عالقةٌ في ذهنِي دونَ أن أبذلَ جهداً في حفظِها.

لكنَّ أبرزَ ما أعانني علىٰ الحفظِ والتركيزِ لأكثرَ مِن شطرِ القرآنِ هو اختيارِي إماماً لأوّلِ مصلَّىٰ أُقيمَ في الحي، وأنا دونَ السادسةَ عشرةَ؛ أعني الصفَّ العاشرَ، أو الأوّلَ الثانويَّ، كما انخرطتُ في الإقراءِ لبعض شبابِ ذلكَ المُصلَّىٰ، وقد تطوَّر فيما بعدُ إلىٰ مسجدٍ تقام فيه الجمعةُ،

وهو المعروف بمسجدِ أسامةَ بنِ زيدٍ في منطقةِ السطرِ الشرقي جنوبَ مدينةِ القرارةِ.

ومما أحملُ من ذكرياتِ المرحلةِ الابتدائيةِ أن أستاذَنا فضيلة الشيخ زكريّا الأغا كان يطلب من الزملاءِ التلاميذِ أن يقتدوا بِي في متانةِ الحفظِ لِمَا كان مقرراً علينَا من سُوَرٍ منتقاةٍ؛ مثل لقمان وغيرِها، كما أن بعض الأساتذةِ في المرحلة الإعداديّة لمْ يكنْ يجيدُ التلاوةَ، فكان يكلِّفُنِي بقراءتِها أولاً، ثم بإقراءِ الطلبة، قبل أن يشرعَ في شرحِ معناهَا.

وأما في المرحلة الثانويّة فكنتُ إذا صَوَّبْتُ أستاذاً في قراءةِ آيةٍ ينظرُ في المصحفِ اليتيمِ في المدرسةِ، فيتأكّدُ من صحَّةِ نُصْحِي، إذْ لم يكنْ في المدرسَةِ غيرُ مصحفٍ واحدٍ في غرفةِ المُدير.

هَذا، وقد ازدريتُ صبيًّا أحوالَ الشيوخِ؛ فإنَّ طائفةً منهم قد انخرطُوا في مهنةِ القراءَةِ في المآتمِ، وعلىٰ القبورِ، في مُقابلِ صدقاتِ الناسِ، بينما كان كثيرٌ منهم إذا اعتلىٰ المنبرَ لا يكادُ يوقظ نائمًا، أو يشدُّ غافلاً؛ ثم إنَّ مظاهرَ أكثرِهم، وسلوكَ بعضهِم، لا يُوحِي بالتديُّنِ، فَضلاً عن أن يكونَ للناسِ إمامًا، فَحلقُ اللحيةِ أمرٌ عامٌّ فِيهم، وكذا التدخينُ عندَ الكثيرينَ، والمزاحُ غَير المُباحِ، كما أنَّ منكراتِ الأفراحِ، والسّينمَا، وغناءَ المِذياعِ، والتبرجَ، والاختلاطَ، وحرمانَ الإناثِ مِن الميراثِ، وغيرَ ذلك، لا تكاد تجدُ

له موضعًا فِي أجندَةِ المشايخِ؛ إلا مَن رَحِمَ رَبُّكَ، مِن أمثَالِ الشَّيخِ سَليم شُرّاب، والأستاذ عز الدين طه، رحمهمَا الله تعالىٰ.

لذلكَ فقد أصررتُ علىٰ الالتحاقِ بكلِّيةِ الشريعة مُعْرِضًا عَن قَبولي في كليةِ الهندسَةِ بجامعَةِ عَينِ شمسٍ بالقاهرةِ، وكان بعضُ الناس يتندَّرُ بي، ويقول: إنَّ مجالَ عَملِي بعدَ التخرّجِ في القراءَةِ علىٰ الأمواتِ بدريهماتٍ، أو بحفناتٍ من (القُطِّين)، وهو التِّينُ المُجَفَّفُ، غيرَأنَّ الله تباركَ وتعالَىٰ يرزقُ بعضَ عبادِهِ مِن حَيثُ لا يحتسبُ، فما كدتُ أحصل علىٰ الشهادةِ الجامعيَّةِ من الجامعةِ الإسلاميّةِ بالمدينةِ المنوَّرة، حتىٰ كانتْ الجامعةُ الإسلاميّةُ بغزّةَ قَد فتحتْ أبوابَها، وعملتُ بِهَا مِن بدايةِ القرنِ الخامسَ عشرَ الهجريِّ المتوازِي مَع العامِ الثمانينَ مِنَ القرنِ العشرينَ للميلادِ.

وقد أُسْنِد إليَّ تدريسُ التفسيرِ والنّحوِ دونَ مشورةٍ، وقد يعودُ السببُ في ذلكَ إلىٰ عُزُوفِ الأساتذة الآخرينَ عن هذينِ المساقَينِ، ووافقَ ذلك هوىً في نفسِي؛ فقدْ عكفتُ مِن قبلِ ذلكَ عَلىٰ القراءةِ بنهمٍ في كتابِ (أضواءِ البيانِ في إيضاح القرآن بالقرآن) للمرحوم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مَع بعضِ التفاسيرِ الأخرىٰ، مَا جعلنِي مفرَّغًا لتدريسِ التفسيرِ في كليةِ أصولِ الدّينِ، رغم أن عقديَ الوظيفيَّ مع كليةِ الشريعةِ، وحينَ ترشحتُ للدراساتِ العليَا كنت مُبْتَعَثًا لدراسة التفسيرِ؛ لولا أني زُوحمتُ بتوأمَينِ من الزملاءِ فِي نفسِ

التّخصُّصِ، ومِن نفسِ كليةِ أصولِ الدينِ، مَا اضْطُرِرت معَه إلىٰ التوجُّهِ لقسمِ الفقهِ والتشريعِ، وعسَىٰ أن كان خيراً، لكنَّ فؤادي ظلَّ متعلقًا بالتخصصِ الأولِ، فقضيتُ أكثر أوقاتي في مطالعةِ التفسيرِ، فقد شغفني حُبًّا، ولنْ أبرحَ عليه عاكفًا حتّىٰ يحكمَ اللهُ لِي، وهوَ خيرُ الحاكمينَ.

وقد أفدتُ كثيراً مِن تفسيرِ شهيدِ العقيدةِ الأستاذِ سَيّد قطب مِن خلالِ كتابِه (**فِي ظلالِ القرآنِ**)، ومِن كتابِ(**الأساسِ في التّفسير**) للمرحومِ الشيخِ سعيد حَوًّا، ثم من كتاب الطّاهرِ بن عاشورٍ (**التّحرير والتّنوير**)، ومن (**التفسير القيِّم**) لابنِ القيِّمِ، وكذا من كثيرٍ منَ الكتبِ المشهورةِ، والدراساتِ المنشورَةِ، سواءٌ وُضِعَتْ ابتداءً لتأويلِ سورةٍ بعينِها، أو جاءَ الاستدلالُ بالآياتِ في ثنايَا الأبحاثِ في أيٍّ مِن جوانبِ المَعرفةِ، ولا يفوتُني أن أشيرَ لكثيرٍ من الفوائدِ كنتُ أحضرُها لحلقاتٍ في المسجدِ النبويِّ، أو أستمعُ إليها في وسائلِ الإعلامِ لبعضِ المشاهيرِ، كالشيخِ الشعراويِّ، والشيخِ النابلسيِّ، وغيرِهِمَا ممن يعتَنِي باللفتاتِ الجميلاتِ في معانِي الآياتِ.

وقد حرصتُ علَىٰ التأْصيلِ الفكريِّ من القرآنِ ابتداءً، وما تيسَّر من السُّنَّةِ، في خطاباتِي وكتاباتِي، لاسيَّما المقال الأسبوعيّ الذي تنشرُه جريدةُ الرسالةِ من عامِ 1997م، وقَد نافتْ حتىٰ الآن علىٰ ألفِ مقالٍ، دَوَّنْتُ

بعضَها لغيرِ الجريدةِ المذكورةِ، ثم مَنَّ اللهُ تباركَ وتعالَىٰ عليَّ ببرنامجٍ تسجيليٍّ في فضائيّةِ الأقصَىٰ بعنوانِ: (**فِي ظلالِ آيةٍ**)، لولاَ ارتباك البرامجِ فيها منذ أكثرَ من سنةٍ وسبعةِ أشهرٍ علىٰ أثرِ اشتعالِ انتفاضةِ القدسِ، وانخراطِ الشبكةِ الإعلاميّةِ للأقصَىٰ في متابعتِهَا وتأجيجِهَا.

وقَد يكونُ مِنَ المُفيد أن أسوقَ بعضَ الأمثلةِ مِن حياتِي الخاصَّةِ فِي أثرِ التدبُّرِ فِي الحَسمِ العاجلِ فِي ردِّ الأئمةِ في الصلاةِ والفَتْحِ عليهِم، أو الإجابَةِ عن موقِفٍ وقعَ فيه لغطٌ أو اختلافٌ.

1. صلَّينا الصبحَ ذاتَ مرّةٍ، وقرأَ الإمامُ مِن وسطِ سورةِ البقرة، حتّىٰ بلغَ قولَه تعالَىٰ: ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ (الآية 209)، فتوقَّف، وكنتُ متردداً هل ختامُ الآيةِ: فاعلموا أنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ، أو غفورٌ رَحيمٌ، لكنّنِي حسمتُ التردُّدَ، ولقَّنتُهُ: ﴿ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾؛ ذلكَ أنَّ الزللَ هُنا عَن علمٍ، بدليلِ: ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾، إذْ يستحقُّ مَن فعلَها الترهيبَ بِعزةِ اللهِ وحكمتِه، وليسَ الترغيبَ بمغفرتِه ورحمتِه.
2. كان لنا أستاذٌ مصريٌّ، يدرِّسُنا اللغةُ العربيّةَ، وتناقشنَا يومًا فِي جوازِ تَذكيرِ لفظِ (الطريقِ) وتأنيثِها، وكانَ يجزمُ بتأنيثِها حتّىٰ مَرَّ بذهني قَولُهُ

تعالَىٰ علىٰ لسانِ الجنِّ في وصفِ القرآنِ: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الأحقاف: 30) فذكرتُها له، فمضَىٰ في المُحاضرةِ، ولم يُعقِّبْ.

3. سألني أستاذٌ في كليّةِ الآدابِ بالجامعَةِ الإسلاميّةِ بغزَّةَ: إنَّ للتعجبِ صيغتَينِ: (مَا أفعلَه، وأَفْعِلْ به)، وهناكَ أمثلةٌ للصيغَةِ الثّانِيَةِ فِي سورتَي الكهفِ (26)، ومريَمَ (38)، فهلْ وردتْ الصيغةُ الأخرَىٰ فِي كتابِ اللهِ؟

وقد فتحَ اللهُ جلَّ وعلا عليَّ فِي أقلَّ من خَمس ثوانٍ بتذكرِ قولِه سبحانَه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ (سورة عبس: 17)، وبقوله تعالىٰ: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ (سورة البقرة: 175).

4. كانَ أستاذٌ للقراءات ينقلُ عَن المُبَرِّد مِن علماءِ اللغة أنَّه لا يجيزُ العطفَ علىٰ الضَّميرِ المَجرورِ بالباءِ إلا إذا أعيدَ حَرفُ الجرِّ؛ مثلَ قولِه سبحانَه وتعالَىٰ عَن قارونَ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ (القصص: 81)، ويقولُ، أي المُبَرِّدُ رَحِمَهُ الله: "لَو صَلَّيْتُ خَلْفَ إِمَامٍ يَقْرَأُ آيَةَ النِّسَاءِ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ بِالجرِّ لأخَذْتُ نَعْلَيَّ وَانْصَرَفْتُ".

فذكرتُ له قولَه تعالَىٰ مِن سورةِ البقرةِ: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرُۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ (الآية217) حَيثُ عطَفَ بالجرِّ لفظَ (المسجدِ) علَىٰ الضميرِ المَجرورِ بالباءِ، دونَ إعادةِ حرفِ الجرِّ، مِمَّا يؤكدُ بطلانَ قولِ المُبَرِّدِ، مَعَ إيمانِنَا بإمامتِهِ العُظمَىٰ في اللُّغةِ العربيّةِ.

5. كُنَّا فِي قَاعةِ مُناقشةٍ لرسالَةِ مَاجستيرٍ في التَّفسيرِ، وكَان أحدُ المنَاقِشِينَ هو أستاذُ التّفسيرِ المرحومُ (**إبراهيم زيد الكيلانـي**) الّذِي كـانَ يومَها عميداً لكليَّةِ الشريعةِ مِن قبلِ أن يُخْتارَ وزيراً للأوقافِ، وقَد عرضتْ آيـةٌ مِـن سـورةِ(المُنـافقونَ) فيهـا إشـكالٌ إعرابـيٌّ، وهِـي قولُـه تعـالَىٰ: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الآيـة 10)؛ إذْ كيـفَ تعطـفُ فِعلاً مُضارعـًا مَجزومـًا علَىٰ مُضـارعٍ منصـوبٍ، وَوَقَـعَ تَـردُّدٌ فِـي ذلكَ، وكنتُ أحدَ الحاضرينَ، فتدخَّلتُ وقلتُ: إنَّه معطوفٌ علَىٰ مَحلِّ الفعلِ لا علَىٰ لَفظِهِ؛ لأنَّه واقعٌ في جوابِ الطلبِ، وَهُوَ التّحضيضُ فِي قولِه فِي نفـسِ الآيـةِ: ﴿رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ ؛ إذْ إنَّ الفعل يُجزَمُ في جوابِ الطَّلـبِ، لأنَّـه حقيقـةً في جـوابِ شـرطٍ مقـدَّرٍ، دلَّ عليه الطلبُ، والتقديرُ: (**إنْ تُؤَخِّرْنِي إلَى أجلٍ قَرِيبٍ أَصَّدقْ وأكنْ..**)،

ولمَّا اتَّصلَ الفعلُ الأولُ بفاءِ السببيَّةِ انتصبَ لفظًا بأَنْ مضمرةٍ وجوبًا بعدَ الفاءِ، وظلَّ مَجزومًا محلًّا، فجازَ عطفُ المجزومِ عليهِ، فانحسمَ الموقفُ، ومضَوا فِي مُناقشةِ الطَّالبِ.

هذَا؛ وإنَّ الحديثَ عَن تدبُّرِ القرآنِ يلزمُه أولاً أَن أسُوقَ مَعنَىٰ التَّدبُّرِ الواجِبِ وعلامَاتِه، ثُمَّ أعرِّج علَىٰ أهمِّ الآدابِ الظاهرةِ والباطنةِ المُعِينَةِ علَىٰ التَّدبرِ المطلوبِ، وفِي مبحثٍ ثالثٍ أذكر قائمةً مِن مفاتيحِ التَّدرُّجِ فِي التدبرِ، وبعضِ مَا ينبغِي ملاحظتُه عندَ مُعالجةِ النَّصِّ القرآنِي، مُستفيداً مِن التجربَةِ الشخصيَّةِ بأكثرَ مما هو مدوَّنٌ في المُصنفات الخاصَّةِ بموضوعِ تدبُّرِ القرآنِ.

لذلكَ؛ فإنَّ الحديثَ هُنَا يتوزَّع علَىٰ ثلاثةِ مباحثَ، كَمَا يَلِي:

المبحث الأول: معنى تدبر القرآن، وعلاماته

إنَّ هـذَا المبحـثَ ينطـوِي علَىٰ مطلبـينِ –كمَـا يلُـوح مِـن ترجمتِـهِ، أو عُنوانِهِ– وإليكُم تفصيلَ القولِ فِي كلٍّ مِنهُمَا:

المطلب الأول: معنى تدبر القرآن:

بـالنظرِ فِـي المواضـعِ الأربعـةِ التِـي جـاءَ فيهَـا فِعْـلُ التـدبُّرِ في القـرآنِ أستطيعُ القولَ باطمئنانٍ: إنَّ معنـاهُ **هـو النَّظَـرُ المُكَـرَّرُ فِـي مَعَـانِي الآيَـاتِ ظَاهِراً وَبَاطِناً**؛ ذلكَ أنَّ الفعلَ قد جاءَ بصيغةِ المُضارع فيهَـا جميعـًا، وكـانَ يَنْعَىٰ علَىٰ المُنـافقين عـدَم التـدبُّرِ مَـرَّتينِ، وينْعَـىٰ علَىٰ المُشـركِينَ ذلـكَ فِـي المَوْضِعَيْنِ الآخَرَيْنِ؛ فأمَّا الموضِعَانِ الأوَّلَانِ فقَالَ فيهما ربُّنا جلَّ جَلَالُهُ:

1. ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: 82).
2. ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: 24).

وأمّا الآيتانِ الأُخريانِ فجَاء فيهِمَا:

3. ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: 68).

4. ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (ص: 29).

إنَّ استعمالَ الفعلِ المُضارعِ فيهَا جميعـًا يدلُّ علَىٰ الاستمرارِ، وتجديدِ العهدِ بالقرآن مرةً بعد مرةٍ، كمَا أنَّ صيغةَ التَّفَعُّلِ تدلُّ علَىٰ التكرارِ كذلكَ، فتكونُ صيغةُ الفعلِ قَد دلَّتْ علَىٰ **ضرورةِ مُعاودةِ التلاوةِ والتّرتيلِ، مَع الاجتهادِ في تَفَهُّمِ مَعانيه جُملةً وتفصيلاً**؛ فأما تدبره جُملةً فَقد أَوْمَأَ إليهَا بِذكرِ لفظِ القرآنِ في آيتَي المنافقين، وأمَا تفصيلاً فَهو ما يُستفادُ مِن استعمالِ لفظِ (القَولِ) مرَّةً، ولفظِ (آياتِه) تارةً أخرَىٰ؛ فقدْجاءتْ الآيةُ الرابعةُ بعدَ نَفيِ المُساواةِ بينَ المؤمنينَ الذينَ يعملونَ الصَّالحَاتِ، والمُفسدينَ فِي الأرضِ، وبينَ المُتَّقِينَ وَالفُجَّارِ، وإنَّ تدبُّرَ بعضِ آياتِ الكِتَابِ يُبَرهِنُ علَىٰ الفَرق الشَّاسِعِ بينَ الفَرِيقَيْنِ، وَلكنَّ الظالِمينَ بآياتِ اللهِ يجحدونَ، بينَمَا يتَّعِظُ بِهَا ويتذكرُ أولُو الألبابِ الّذينَ يقولُونَ: رَبَّنَا مَا أَنْزَلْتَ هَذَا بَاطِلاً، سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

المطلب الثاني: علامات التدبر:

إنَّ هناكَ طائفةً مِنَ الآياتِ تذكُر أنَّ المؤمنينَ تَوْجَلُ قلوبُهم لذكرِ اللهِ، وما نَزَلَ مِنَ الحقِّ، فَهُم إذَا تُلِيَتْ عليهِم آياتُه زادتهُم إيمانـًا، وزادتهُم خُشوعـًا، وتأخذُهُم القشعريرةُ مِمَّا فيهِ مِنَ الوعيدِ والقَوَارعِ، فَيَخِرُّونَ سُجَّداً،

ويَخِرُّونَ للأذقَانِ يبكونُ، وترَىٰ أعينهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمعِ مِمَّا عَرفُوا مِنَ الحَقِّ، فَهُمْ إذا تُتْلىٰ عليهِم آياتُ الرحمنِ، لم يَخِرُّوا عليها صُمًّا وعُميانًا، بَل خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيًّا، حتَّىٰ إذا مَرُّوا بآياتِ الوعدِ والرحمةِ لانَتْ جلودُهم وقلوبُهم إلَىٰ ذكرِ اللهِ، ولم يكونُوا كالذينَ أُوتوا الكتابَ مِن قبلُ، فطالَ عَليهِمُ الأمدُ، فَقَسَتْ قلوبُهم، فويلٌ للقاسِيَةِ قلوبهُم مِنَ ذكرِ اللهِ؛ بل زادتُهم إيمانًا وَهُمْ يستبشرونَ، ويقولونَ: ربَّنا آمنا؛ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ، ويقولونَ كذلكَ: آمَنَّا بِهِ؛ إِنَّهُ الحَقُّ مِن ربِّنا، وإنَّهُ لكتابٌ عزيزٌ، لا يأتِيه الباطلُ مِن بينِ يديْهِ ولا مِن خلفِهِ.

وهاكمْ بعضَ تلكَ النُّصوصِ:

1. قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (التوبة: 124).

وهي تنعَىٰ علَىٰ المُنافقينَ أنَّ نزولَ الآياتِ يزيدهُم رِجْسًا إلىٰ رجِسهم؛ لأنَّ علىٰ قلوبهم أقفالَها، فقَد كانُوا يستمعونَ للنبيِّ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وسلَّم، حتَّىٰ إذا خرجوا مِن عندِه قالوا للذينَ أُوتُوا العلمَ: مَاذا قالَ آنفًا؟

جَهلاً أو هُزُوا، بينمَا المؤمنون يفرحونَ بما أُنزِلَ من الكتابِ، ويظهَرُ بِشْراً في وجوهِهم.

2. وقالَ سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ (الإسراء: 107-109).

3. وقالَ جلَّ وعَلا: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: 23).

ويمكن الاستزادةُ في النصوصِ ممَّا وردَ في سورةِ المائدةِ (83) في معرِض الحديثِ عمّن آمنَ من القسِّيسينَ والرّهبانِ، وفي سورة القَصصِ (53) وصفًا لوفدِ النّجاشيِّ مِن النصارَىٰ الذينَ آمنوا، فَأُوتوا أجرَهُم مرَّتين، وكذلك في سورة الرعدِ (36)، وأما في معرض الحديثِ عَن المؤمنين المجاهدينَ فانظروا في سورة الأنفالِ (2)، وكذلك سورة مريمَ (58) بعد تعدادِ طائفةٍ من النّبيِّين، ومِنَ الذينَ هدَىٰ الله واجْتبَىٰ، فإنَّهم إذا تُتلىٰ عليهم آياتُ الرحمن خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيًّا.

المبحث الثاني:

أهم الآداب الظاهرة والباطنة عند تلاوة القرآن:

إذَا قرأتَ باسمِ ربِّك الّذِي خلقَ، وقرأتَ مَع ربِّك الأكرمِ الّذِي نـزَّل الكتابَ وَهُوَ يتولَّىٰ الصالحِينَ؛ لَزِمَكَ أن تتحلَّىٰ بجملةٍ من الآدابِ الظّاهِرَةِ، وأن تتوشَّحَ بطائفةٍ من الآدابِ الباطنةِ، وذلك كمَا في المَطلبين التاليينِ:

المطلب الأول: الآداب الظاهرة لتلاوة القرآن:

ذكـرَ العلمـاءُ المزيـد مـن الآدابِ الظَّـاهرة عنـدَ تـلاوةِ القـرآنِ، حتَّـىٰ تُؤْتِيَ أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذن ربِّها تـدبُّراً وفهمـًا، وتـأثراً مُفْضِيـًا إلـىٰ المسـارعة في الخيرات وهم لها سابقون، ومنها:

1. استحضـارُ النيّـةِ الحسـنةِ؛ رغبـةً في التقـربِ إلـىٰ الله تعـالىٰ، فإنمـا الأعمالُ بالنياتِ، وإن الله أغنىٰ الشـركاء عـن الشـرك، فكيـف يفـتح لـك من رحمته التي لا مُمْسِكَ لها، ما لـم تكـنْ قـد ابتغيـت بتلاوتـك وتـدبرك وجه الله ورضوانه؟!
2. الطهارةُ من الحدثِ الأكبرِ لزومـًا، ومن الأصغر اسـتحبابـًا؛ حتَّىٰ تكـون قد بَالَغْتَ في الاستعداد لتكليم الله تعالىٰ بتلاوة كلامه، فكنـت حَرِيًّـا أن يكرمك بما يزيدك إيمانـًا واستبشاراً.

3. السِّواكُ؛ فإنَّه مطهرةٌ للفمِ مرضاةٌ للربِّ، فضلاً عن كونه إكراماً للكرامِ الكاتبينَ، ولإخوانك المؤمنينَ، فلا يجدونَ منك إلا أطيبَ ريحٍ.
4. استقبالُ القبلةِ؛ زيادةً في التشبُّهِ بالذينَ هم في صلاتهِم خاشعونَ، ولا بأس بالتحلُّق في دائرةٍ ونحوِها عند التلاوةِ الجماعيَّةِ.
5. الجلسةُ الخاشعةُ تَأَدُّبًا مع القرآنِ، ومعَ الرحمنِ الّذي تُناجيهِ، وتتقربُ إليه بالترتيلِ؛ فإنَّ الحياءَ من الإيمانِ المُدْنِي لِجَنىٰ القرآنِ.
6. اختيارُ الزمنِ المناسِب؛ كالثلثِ الأخيرِ منَ الليلِ، وقرآنِ الفجرِ، والترتيلِ في القيامِ، وكلما كان القلبُ أكثرَ تفرغًا من الشواغل حتَّىٰ في آناءِ النهارِ، أو قبل طلوعِ الشمسِ وقبل الغروبِ، لكنَّ ناشئة الليلِ هي أشدُّ وطئًا وأقومُ قِيلا.
7. اختيارُ المكانِ المناسبِ؛ كبيتٍ من بيوت اللهِ، أو مُصَلّىً في البيتِ، بعيداً عن الضجيجِ، وعبث الأطفالِ، وشواغل القلب، من الصور، والأصوات، ونحوِها.
8. تفريغ النفس من الشواغل المُشَوِّشة؛ كالجوع والعطش، أو الحرِّ والبرد، أو الغضب والاحتقان، أو قطع التلاوة بالحديث الدنيوي، وغير ذلك.
9. البَدْءُ بالاستعاذة وجوبًا، وبالبسملة وجوبًا في صدر السور، إلا في صدرِ سورةِ التوبةِ، واستحبابًا بعد الآية الأولىٰ منها؛ حتىٰ تتهيأ لتكليم الله، وتطهيراً للفم واللسان من اللغو والرَّفَث.

المطلب الثاني: الآداب الباطنة لتلاوة القرآن:

حتَّىٰ تأخذوا الكتاب بقوةٍ، وتذكروا ما فيه؛ لعلكم تتقونَ؛ فإن هناك جملةً من الآدابِ الباطنةِ، وهَاؤُمُ اقرؤوا أبرزَها في النقاط الست التالية:

1. **استحضار عظمة كلام الله عز وجل**، وعظمة المتكلِّمِ به تبارك وتعالىٰ؛ فإنه لو أنزله علىٰ جبلٍ لرأيته خاشعًا مُتَصَدِّعًا من خشية الله، ولو أن قرآنًا سُيِّرَتْ به الجبال، أو قُطِّعتْ به الأرض، أو كُلِّمَ به الموتىٰ؛ لكان هذا القرآن المنزَّل ممن وسع كرسيُّهُ السمواتِ والأرض، ولا يَؤُوده حفظهما، وهو العليُّ العظيم.
2. **حضور القلب**، ومجاهدة وساوس النفس؛ حتىٰ يتحقق الذكر لمن كان له قلب، أو ألقىٰ السمع وهو شهيد؛ فإنه نزل تبصرة وذكرىٰ لكلِّ عبدٍ منيب.
3. **التخلي عن موانع الفهم**، وأهمُّها الذنوب التي تُميتُ القلوب، أو تملؤها ظلمةً، أو تصدأ بها، فتكون كالمرآة، كلما كانت مَجْلُوَّةً كانت الصورة ناصعة، وإذا صَدِئَتْ تَغَبَّشَتِ الصورة فيها، وهكذا معاني القرآن التي يُصَوِّرها القلب؛ فإنها تتأثر به سلبًا وإيجابًا.
4. **التخصيص**: وهو أن تشعر بأنك المقصود بالخطاب، فالتكليف يتوجه إليك شخصيًا، وأنت المعنيُّ بالوعد والوعيد، فلم تقعدْ، ولم تَتَبَلَّدْ؛

حتىٰ تأتي آمنًا يوم القيامة؛ فإنك لا تكلَّف إلا نفسك، ولا يَضُرُّكم مَنْ ضلَّ إذا اهتديتم.

5. **التأثُّر**: ومعناه ظهور علامات التدبر عليك من القشعريرة للجلود، والبكاء للعيون، والخُرور للجباه والأذقان سُجَّداً لله وهم داخرون، ثم الاستبشار والفرح الذي تلين معه الجلود والقلوب إلىٰ ذكر الله.

6. **الترَّقي**: ذلك أن المتدبر يتلو باللسان، ويسمع بالآذان، ويتفهم بالجَنَان، لكنه قد يترقىٰ في مقامه، فيتخيَّلُ أنه يسمعه من النبيِّ صلىٰ الله عليه وسلم، وقد يسمو فيتصور أن جبريل يوحي به إلىٰ رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يسمع، وقد يعرج بروحه إلىٰ الأفق الأعلىٰ، فينصتُ لوحي الله به إلىٰ عبده جبريل شديدِ القُوىٰ الروحِ الأمين، وهذا مقام خصوص الخصوص من الصِّدِّيقين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، وكأنهم علىٰ الصراط يوم القامة، وهم يَتَراءَوْنَ أهل الجنة يَتَنَعَّمون فيها، وإذا صُرِفَتْ أبصارهم تلقاء أصحاب النار سمعوا لهم زفيراً وشهيقًا، فهم يصطرخون فيها، كما يتخيلون مَلَكَ الموت من ورائهم يوشك أن يتوفاهم راضين مَرْضيِّين؛ ليدخلوا في عباد الله، ويدخلوا جَنَّته.

المبحث الثالث: التدرج في مفاتيح التدبر

بعد الاطلاع علىٰ بعض المدوَّنات في مفاتيح التدبر للقرآن الكريم بين مطوِّلٍ ومقتصدٍ وجدتُها تُغْرِقُ في التنظير دون أن تسوق مثالاً لكثيرٍ منها، ثم إن ذلك المثال يأتي من الآثار عن الرسول صلىٰ الله عليه وسلم، أو من تجارب الصحابة والتابعين، كَمَنْ قام الليل بآيةٍ واحدةٍ يُرَدِّدها وهو يتملَّىٰ في معانيها دون أن يرتويَ منها.

وكنت أودُّ لو حَدَّثنا أولئك المُصَنِّفون عن تجاربهم الخاصة، وما فتح الله به عليهم من أثر تدبرهم الشخصيِّ، مما تحتمله دلالة اللغة العربية، ولم يتناقض مع معانٍ أقوىٰ منه برهانًا، وخاصة إذا كان دواءً لأدواءِ واقعهم؛ حتىٰ نرىٰ كيف يتنزَّلُ القرآن علىٰ النوازل المستجدة؛ كأنما أنزل الآن بشأنها، والحقُّ أنني لم أجدْ ما يشفي العليل، أو يروي الغليل، فاستعنت بالله الجليل لاصطياد طائفة من المفاتيح، لا أزعم أن كلَّ ما فيها من الفتوحات الخاصة، غير أني قد صبغتها بما فتح به الله علىٰ عبده الفقير لكلِّ ما أفاض به عليه من الفهم والتفسير.

وقد رأيتُ أن أجعل ذلك في مطلبين أيضًا، أخصُّ الأول منهما ببعض ما ينبغي اعتماده من منهجٍ للتدبر، وأذهب في الثاني لبعض ما اجتهدتُ

فيه من المعاني، ولا أدعي فيها مطلق الصواب، غير أنني أرجو ألَّا أُحْرَمَ مما كتبه الله للمجتهد من الثواب.

المطلب الأول: مفاتيح منهجية للتدبر

إن هذه المفاتيح ليست محصورة فيما يُسَجَّل هنا، وحسبي أن أرصد قبضة منها تَمْهَدُ السبيل للتدبر، ومنها هؤلاء الأحد عشر كوكبًا:

1. ضرورة الحرص علىٰ إتقان التلاوة وأحكام التجويد؛ حتىٰ تصبح كالسليقة، فلا تحتاج إلىٰ اشتغال القلب بضبطها؛ حذراً من اللحن الجليِّ أو الخفي؛ فإنه يمنع من تمام التدبر.
2. التلاوة اليومية لطائفةٍ من القرآن، مهما قَلَّتْ، ويحسن أن تقطع جزءاً يوميًا، فلا يمرُّ شهر إِلَّا وتكون قد ختمتَ المصحف تلاوةً، ولو بالحَدَر، أو التدوير؛ أيْ بالتلاوة السريعة أو المتوسطة؛ حتىٰ تعيش مع جميع القرآن، ويعلق أكثره بقلبك، وإن لم تبذل جهداً في حفظه.
3. الحرص علىٰ حفظ القرآن كاملاً غيرَ منقوص، أو الاجتهاد في حفظ أكثره؛ فإن حفظ النصوص أعون علىٰ ربطها ببعضها؛ وإن كثيراً مما أُجْمِلَ منه في مكان قد جرىٰ بيانه في مكانٍ آخر، وقد أَحَالَ القرآن المتأخر في النزول علىٰ المتقدم كثيراً، أو فسَّر بعضه بعضًا دون إحالة واضحة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ

عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ ﴾ (الأنعام: 119).

وقد فصَّل محرماتِ المطعومات من قبلُ في سورة النَّحْل (115)، كما يعود في نفس سورة الأنعام؛ ليبين أن سرَّ التحريم هو النجاسة الحسية في الميتة، والدم، ولحم الخنزير، بينما هي النجاسة المعنوية فيما أهل به لغير الله؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ ﴾ (الحج: 30)، فضلاً عن أن ذابحيها من المشركين نَجَسٌ، كما في التوبة (28)، وانظر علة الرجس في المطعومات الثلاثة في الأنعام (145).

4. احرص علىٰ التلاوة والحفظ من نسخةٍ واحدةٍ، ويفضَّلُ أن تكون تلك النسخة واسعةَ الانتشارِ؛ بحيث إذا دخلت أيَّ مسجدٍ وجدتها؛ فإنَّ التلاوة والحفظ ترسم الصفحاتِ في الأذهانِ، فتكون متصوِّراً لكل آيةٍ؛ هل هي في أولِ الصفحةِ، أم في وسطها، أو آخرها، وهل هي علىٰ يمين المصحفِ أم علىٰ شِماله؛ فإنك إذا قرأت في أكثر من طبعةٍ تداخلَ عندك تصوُّرُ الآياتِ، وقد يرتَبِكُ الحفظ.

5. احرص علىٰ معرفة رؤوس الأجزاء الثلاثين، والأحزاب الستين، والأرباع الأربعين بعد المائتين، ولو تمكَّنْتَ من رصد أرقام الآيات عند

كلِّ أولئك في صدرك سيسهل عليك الرجوع إلىٰ ما تريد دون الحاجة إلىٰ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن غالبًا، وإن كنتَ لا تملك الاستغناء عنه بالكلية، ولْيشدَّ انتباهَك الفرقُ بين السور المكية والمدنية، مع معرفة ربع الطوال، وربع المئين، وكذلك ربع المثاني، وربع المفصَّل، مع حفظ أسماء السور مرتبةً حسب ورودها في المصحف؛ فإن كلَّ ذلك مما يعين علىٰ التدبر.

6. اتْلُ ما تحفظ في النوافلِ وصلواتك الفردية، وإذا كُنْتَ إمامًا في مسجدٍ فهذا من فضل الله عليك؛ لِتتمكَّنَ من تثبيت حفظك من ناحيةٍ، ولِتقرأَ في الصلاة الجهرية ما هو أقرب إلىٰ هموم المصلينَ من ناحيةٍ أخرىٰ؛ فليس من الحكمة أن تستفتح في مناسبة نكاحٍ بآيات الموتِ والصبر والابتلاء، كما لا يحسن أثناء الحرب أن تعدو آياتِ الجهاد والغزوات؛ لتتلو ما يتعلق بالطلاقِ والإيلاءِ والخلعِ والعِدَّة والصَّداقِ.

7. يُفَضَّلُ أن تشتغل بالتحفيظ للأجيال الشابة والأشبال؛ فإنه أعون علىٰ تمتين الحفظ، أو أن تتنافس مع إخوة آخرين، وتزاحمَ في المسابقات، وما شابه ذلك.

8. ابدأ مع التلاوة بفهم معاني غريب القرآن من كتاب مختصر كتفسير الجلالين ونحوِه، ثم اقرأ تفسيراً موجزاً ميسراً؛ مثل أيسر التفاسير للشيخ أبي بكر الجزائري، وهي كثيرة؛ حتىٰ يسهل عليك التدبر الأَوَلِيُّ

للقرآن، وحتىٰ تستطيع المرور عليه في ظرف منظور كَسَنةٍ مثلاً، فتصبحَ مواضيع القرآن حاضرة في قلبك، ولو في نِصاب المعرفة.

9. انتقل بعد ذلك لفهم ما تحفظ بالنظر في تفسيرين علىٰ الأقل، ويفضَّل أن يكون أحدهما من التفسير بالمأثور؛ كمختصر ابن كثير، والآخر من التفسير بالرأي؛ أيْ وفق قواعد اللغة العربية، وعلوم القرآن، مثل تفسير النَّسَفي، أو ابن الجوزي في زاد المسير، والمصنفات في التفسير بالرواية وبالدراية كثيرة، والمهم أن تحتفظ بمذكرات تلتقط فيها الفوائد واللطائف أولاً بأول؛ لتكون بمثابة رصيدٍ ثقافيٍّ تعود إليه بين الحين والآخر؛ لاستحياء ما يَعْزُبُ عن بالك؛ فإن حياة العلم مذاكرتُه، وهو يفرُّ من الصدور غالبًا، ما لم يكن متونًا محفوظةً، ومفهومةً كذلك، وأن يكون حفظًا في الصِّغَر؛ ليكون كالنَّقْشِ في الحجر، لا تكاد تؤثر فيه عوامل التعرية.

10. ويفضل أن تكون هناك حلقةٌ دائمةٌ جماعيةٌ للتدبر، ولْتكنْ مع أحد المختصين، ومن أطاق الجلوس في حلقتين أو أكثر كان نوراً علىٰ نورٍ، وإذا لم يتيسَّرِ المختصون فَلْيكنِ التدبر الجماعي معينًا علىٰ زيادة التفهم لمعاني القرآن؛ فإن العلم والفهم مِنَحٌ إلهية موزَّعةٌ بين العباد، وقد يوجد في النهر أحيانًا ما لا يوجد في البحر، والمهم هو المداومة

والاستمرار؛ فإن نزول القرآن قد سلخ ثلاثة وعشرين سنة مع جيلٍ خبيرٍ بالعربية، لم تُفسِدْه اللغات الأعجمية، أو اللهجات المحلية، وقد قال سبحانه: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ (الإسراء: 106).

أي أنزله منجمـًا؛ لِيُثَبِّتَ به الأفئدة، وليكون كالغيث النافع؛ فإن الوابل الصيِّبَ قد يُهلك الحرثَ والنَّسْل؛ أيِ الزرعَ والضَّرْعَ، والقلوب كالأودية، منها جداولُ لا تسع إلا القليل، ومنها أخاديدُ تسع الأنهار المتدفقة.

11. ولعلَّ من أهم ما أُوصي به هنا هو الإخلاصَ لله في طلب فهم كتابه لمعرفة مراده من عباده، حتىٰ نطيعه كما يحبُّ ويرضىٰ، وحتىٰ نحيا به حياة طيبة، ويمتعنا به ربُّنا متاعـًا حسنـًا، ويُصْلِحَ به بالنا، ثم نُجزاه الجزاءَ الأوفىٰ في جناتٍ ونعيم، وفي جناتٍ وعيون، بل في جناتٍ ونَهَر، في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، أما من يريد به أن يجادل العلماء، أو يماريَ السفهاء؛ فإننا نشفق أن يكون من أول من تُسَعَّرُ بهم جهنم، أو أن يكون ممن أخلد إلىٰ الأرض، واتبع هواه، فنبذه وراء ظهره، واشترىٰ به ثمنـًا قليلاً.

المطلب الثاني: بعض مفاتيح ينبغي الانتباه لها:

(1) الاجتهاد في الاطِّلاع على أسباب النزول:

إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، غير أن الوقوف علىٰ أسباب النزول يعين علىٰ فهم الآيات بصورةٍ أعمق، وفي بعض الأحيان؛ فإن الفهم الصحيح يتوقف علىٰ معرفة تلك الأسباب، ومثال ذلك قوله تعالىٰ:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء: 3).

فإن ظاهر هذه الآية أن تعدُّدُ الزوجات يعين علىٰ القسط في التعامل مع اليتامىٰ، أو في العدل في أموالهم بإيتائها لهم، وعدم تبديل الخبيث من أموالنا بالطيب من أموالهم، وعدم أكلها مع أموالنا، لئلا نقع في الحُوبِ الكبير، أو الحِنْث العظيم، وهو من الموبقات السبع.

إن هذا المعنىٰ غير صحيح بالقطع؛ فإن الذي يتزوج بأكثر من واحدة يحتاج إلىٰ نفقة أكبر، وربما اجترأ علىٰ أموال اليتامىٰ، والصحيح أن هذه الآية نزلت لإيجاب القسط في مهور اليتيمات؛ فقد كان الرجل في الجاهلية؛ إذا كانت اليتيمة في حِجْرِهِ يرىٰ أنه أحقُّ بها من نفسها؛ فإما تزوجها من غير مهرٍ، وإما زَوَّجها، وأكل مهرها، فَنُهُوا عن ذلك، وأُمِروا

أن يبلغوا بهنَّ أقصىٰ سنتهن في الصداق بحسب مهور أمثالها، وإلَّا تفعلوا فتزوجوا من غيرهن بما لا يزيد علىٰ أربع.

(2) التوقف عند وجه الارتباط بين الآيات عامة، وعند التحول من موضوع إلى آخر على وجه الخصوص:

إن الترابط بين الآيات في السورة الواحدة كالارتباط بين الأعضاء في الجسد الواحد، مهما بدا عند الانتقال من التباعد بين الموضوعين، فيحتاج إلىٰ التدبر لمعرفة قوة اللُّحْمة، وعمق الرحم بينهما، ومن أمثلة ذلك:

جاء في سورة الأحزاب الحديث عن تخيير أمهات المؤمنين بين العيش بالزهد في الدنيا، أو تسريحهن وإعطائهن المتعة، وهي مبلغ من المال يعطىٰ للمطلقة؛ تطييباً لخاطرها، وتعويضاً عمَّا فاتها من النفقة التي كانت تتلقاها من الزوج، وقد وقع ذلك التخيير بعد الفراغ من التعقيب علىٰ غزوة الأحزاب، وغزوة بني قريظة، ومن المعلوم أن الله عز وجل قد أورثنا أرض اليهود الغادرين، وديارهم، وأموالهم، وأرضاً لم تطؤوها.

إن نصيب النبي صلَّىٰ الله عليه وسلم في الفيء هو الخُمُس، وفي الغنيمة خُمُسُ الخُمُسُ، ولذلك فقد كان نصيبه من غنائم بني قريظة مالاً لُبَداً، غير أنه ظلَّ زاهداً في الدنيا؛ إذِ الزهد الحقيقي هو زهد الواجد، وليس زهدَ الفاقد، وقد أَلَحَّتْ عليه نساؤه في التوسعة عليهن، فأمره ربُّه جلَّ وعلا بتخييرهن بين إرادة الحياة الدنيا وزينتِها مع الفراق الجميل، أو إرادة الله،

ورسوله، والدار الآخرة، فاخترْنَ الثاني، وبَقِينَ أمهاتٍ للمؤمنين، ومن أهل البيت اللائي أراد الله أن يُذْهبَ عنهن الرجز، ويطهرهن تطهيراً، فإنهن لَسْنَ كأحدٍ من النساء إِنِ اتَّقَيْنَ؛ ومن يقنت منهن لله ورسوله، وتعمل صالحًا؛ يُؤْتِها أجرها مرتين.

(3) الاهتمام بالسياق حتى يتحقق الغوص في أعماق المراد بالآية:

حين تُقْتَطَعُ الآية من سياقها نتوقف عند معناها الظاهر، وحين تُفْهَمُ في سياقها القريب يتجلّىٰ معناها بصورة أكبر، وإذا فهمناها في سياقها البعيد، أو في ظلال شخصية سورة كاملة تزداد جلاءً، وإذا أُخذت بعد ذلك في سياق الوحدة الموضوعية في القرآن كلِّه كانت نوراً علىٰ نور، ومن أمثلة ذلك:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (آل عمران: 185).

فإن ظاهر معناها الإنباءُ عن أربع قضايا؛ أولاها حتمية الموت لكل نفس؛ فإن كلَّ مَنْ عليها فَانٍ، وكل شيءٍ هالك إلا وجهه، والثانية إيتاء الأجور يوم القيامة؛ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنىٰ، والثالثة أن من أفلت من النار ولو زحزحةً بقوة أخرىٰ غير قوته الخاصة؛ أيْ لم يكن بمقدوره أن يجتاز الصراط ولو زحفًا، فتداركه رحمة

من ربِّه، وأُبعد عن النار بلطف الله، فقد فاز؛ فكيف إذا أُدخل الجنة بعد ذلك؟!، وكيف بمن مَرَّ علىٰ الصراط كالبرق اللامع، أو كالريح المرسلة، أو كالطير في جَوِّ السماء، أو كالخيل الجياد؟!، لقد فاز فوزاً عظيمـًا، وأما الرابعة فإن الحياة الدنيا محصورة في متاع الغرور، وهي لا تساوي عند ربنا جناح بعوضة، ومَثَلُها في الآخرة بمقدار ما تحمله الأصبع إذا غُمِسَتْ في اليمِّ؛ أي الصِّفر إلىٰ المطلق.

غير أن هذه الآية جاءت في ثنايا الحديث عن اليهود في السياق القريب، فهم الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، وهم الذين قتلوا الأنبياء، وزعموا أن الله عَهِدَ إليهم ألَّا يؤمنوا لرسول حتىٰ يأتيهم بقربان تأكله النار؛ ليبطلوا بذلك نبوة سيدنا محمدٍ صلىٰ الله عليه وسلم، وهم الذين سمعنا منهم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً، كما أنهم نبذوا كتابهم وراء ظهورهم، واشتروا به ثمنـًا قليلاً، كما أنهم يفرحون بما أَتَوْا من الإفك، ويُحبون أن يُحْمَدُوا بما لم يفعلوا؛ فما علاقة الآية المذكورة بهم؟.

إن الله تبارك وتعالىٰ قد سَلَّىٰ نبيَّه عليه الصلاة والسلام بأنهم إنْ كَذَّبوه فقد كُذِّب رسل من قبله، جاؤوا بالمعجزات وبالرسالات، وإن اليهود كلما جاءهم رسول بما لا تهوىٰ أنفسهم فريقـًا كذَّبوا، وفريقـًا يقتلون.

ثم سَرَّىٰ عن نبيِّه بأن كلَّ نفس ذائقة الموت؛ فإن إلىٰ الله إيابهم، ثم إن عليه حسابهم، ولن يفلت اليهود من عاقبة الجحود لنبوتك، ولسوف

تُوَفَّىٰ كلُّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون، ومن أساء فَعَلىٰ نفسه تدور الدوائر، وما الحياة الدنيا التي افْتُتِنَ بها اليهود، فكانوا أحرص الناس علىٰ حياةٍ، إلَّا متاع الغرور، فقد خُدِعوا بها، وما هي إلا دار الشقاء والعناء، ومع ذلك فليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها، وباطل ما كانوا يعملون، وسيقال لهم في جهنَم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (الأحقاف: 20).

فإذا ذهبنا إلىٰ السياق البعيد وجدنا سورة آل عمران تعرض بالتفصيل لكثيرٍ من المشاهد والعبر المستفادة من غزوة أُحُدٍ، تلك التي خسرنا فيها الغلبة العسكرية والغنائم في الجولة الثانية من بعد ما أراكم ما تحبون، وصدقكم وعده؛ إذْ تَحُسُّونهم بإذنه.

والغرض منها أن تَرُدَّ علىٰ المنافقين الذين قَعَدُوا، وقالوا عن إخوانهم الشهداء: لو أطاعونا ما قُتلوا، فردَّ الله عليهم أنهم أحياء عند ربهم يُرزقون، وأن كلَّ نفس ذائقة الموت، ولو لم يُقتلوا لماتوا في الميقات المحدد، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وأما نبأ توفية الأجور يوم القيامة فَسِرُّه أن الغنائم التي فاتت إنما أراد الله أن يَدَّخِرَ لهم ثوابها إلىٰ يوم القيامة؛ فإن ما يؤتيه الله لعباده من النعم هو بعض أجرهم المعجَّل في الدنيا، وإنما يُعطي العبد يوم القيامة بقية أجره، فمن لم يَنَلِ الكثير من الدنيا فهي كرامة له من ربِّه؛ ليكون جزاؤه موفوراً في دار الخُلْد، ومهما أُوتي الإنسان في الدنيا؛ فإنه متاع الغرور الذي يشبه السراب، وإذا كان من زُحزح عن النار، وأُدخل الجنة قد فاز، فما بالكم عندما يكون قد نال الشهادة في سبيل الله، أو كان من المجاهدين الذين فُضِّلوا علىٰ القاعدين أجراً عظيماً درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمة، وكان الله غفوراً رحيماً؟!.

وإذا ضممنا هذه الآيةَ إلىٰ أخواتها التي تؤكد أن كلَّ نفسٍ ذائقة الموت، وأن يوم القيامة لا ريبَ فيه، أمكن أن يُكْتَبَ في تأويلها رسالة أو مجلد، فيتأكد لنا أنه لو كان البحر مداداً لكلمات ربنا لنفد البحر قبل أن تنفد تلك الكلمات، ولو جئنا بمثله مدداً، ولو بسبعة أبحر، وكفىٰ بالله عليماً.

(4) الركض وراء المعاني المتعلقة بالموضوع الواحد، حتى يكتمل التصور الحقيقي له:

ذلك أن القرآن فيه مجملٌ ومبيَّن، ومطلق ومقيد، وعام وخاص، بل وناسخ ومنسوخ، فإذا جُمعت النصوص أمكن الخروج بالصورة المتكاملة للمراد؛ ومن أمثلة ذلك قوله تعالىٰ:

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (المائدة: 5) فإنها تدل علىٰ حبوط العمل بمجرد الردة، ويترتب عليه إذا تاب وأناب أن يعيد حجَّه مثلاً إذا كان قد حجَّ، وأن يجدِّدَ عقد نكاحه، وما شابه ذلك، غير أن الأرجح في شرط حبوط العمل هو الموت علىٰ الكفر قبل التوبة؛ بدليل قوله جل وعلا: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة: 217).

فقد شرط لحبوط العمل مع الردة عن الدين الموتَ علىٰ ذلك؛ فدلَّ علىٰ أن العباداتِ والأنكحةَ لا تبطل بمجرد الردة، إنما تتوقف علىٰ حصول التوبة؛ فإذا تاب ثبتت له، وربما كان من الذين يُبَدِّلُ الله سيئاتِهم حسناتٍ؛ إغراءً لهم بالتوبة.

ومن أمثلة ذلك تحريم الدم، فقد جاء مطلقًا في البقرة (173)، والمائدة (3)، والنحل (115)، غير أنها قُيِّدت بالمسفوح، وهو الكثير في قوله تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ

أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (الأنعام: 145).

ويدخل في ذلك إيجاز بعض المشاهد في القصص، وتفصيلها في مواضعَ أخرىٰ؛ فقد جرىٰ التفصيل في قصة آدمَ في كلٍّ من البقرة، والأعراف، والحجر، وطه، والإسراء، وسورة ص، لكنها أجملت في سورة الكهف في الآية (50).

(5) الاجتهاد في تنزيل المعاني على الواقع؛ ليكون القرآن نوراً لنا ودستوراً، لا كتاب ثقافة:

إن من أمثلة ذلك أن الفراعنة عندما تسلَّطوا علىٰ مَنْ آمن من بني إسرائيل مع سيدنا موسىٰ، فقالوا: ﴿ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ ﴾ (غافر: 25)، وقال فرعون نفسه: ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴾ (الأعراف: 127)؛ أخذهم رَبُّهُمْ بالسِّنين، ونقصٍ من الثمرات، وهي الضائقة الاقتصادية؛ لعلهم يَذَّكَّرون، فما استكانوا لربهم وما يتضرعون، وراحوا يَطَّيَّرون بموسىٰ ومن معه، ويقولون: ﴿ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأعراف: 132).

ولذلك فقد دعا عليهم سيدنا موسىٰ أن يطمس الله علىٰ أموالهم، وأن يَشْدُدَ علىٰ قلوبهم، فلا يؤمنوا؛ حتىٰ يَرَوُا العذاب الأليم، قال الله جلَّ جلاله: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾، فأرسل عليهم الطوفان، والجراد، والقُمَّلَ، والضفادع، والدم آياتٍ مُفَصَّلاتٍ، واحدةً إثر الأخرىٰ، وكانت كلُّ لاحقةٍ منها أكبرَ من أختها، فاستكبروا، وكانوا قومًا مجرمين، رغم أنهم في كلِّ مرة كانوا يفزعون إلىٰ موسىٰ أن يدعو ربَّه برفع الرجز أو البلاء عنهم، وأنه إذا كشفه لَيُؤْمِنُنَّ به، ولَيُرْسِلُنَّ معه بني إسرائيل، ولهذا فقد انتقم الله منهم، فأغرقهم في اليم بأنهم كذبوا بالمعجزات التِّسع، وكانوا عنها غافلين، ومَنَّ الله علىٰ الذين اسْتُضْعِفوا في الأرض من إخواننا الذين سبقونا بالإيمان، وجعلهم أئمةً، وجعلهم الوارثين، ومكَّن لهم في الأرض، وأرىٰ فرعون، وهامان، وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون، بل وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها التي بارك فيها، وتَمَّتْ بذلك كلمة ربِّك الحسنىٰ علىٰ بني إسرائيل بما صبروا.

وإنني مستبشر أن ما حصل في مصر بعد الانقلاب من الضائقة الاقتصادية، ثم من وُشوك الانهيار الاقتصادي، ومع ذلك لم يَرْعَوُوا عن فتنة المؤمنين والمؤمنات، ولا عن حصار غزة، ولا عن الولاء لليهود والنصارىٰ، إنني مستبشرٌ أن الطوفان سيأخذهم وهم ظالمون، وقد يكون هذه المرة

طوفانًا بشريًا لا مائيًا، لأن إهلاك الله للطغاة من بعد سيدنا موسىٰ، ودَفْعَ شَرِّهم، صار بجهاد المؤمنين لأولئك الجاحدين، ولا أستبعد أن يكون هلاكهم في بعض صوره مائيًا، خاصة بعد أن أغلقوا حدودنا، وأغرقوها بماء البحر، ولسان حالهم يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ الزخرف (51)

كما أن الخلاص منهم قد كان بضرب طريقٍ لهم في البحر يَبَسٍ، وربما كان مَخْرَجُنا من حصارهم عبر ميناءٍ بحريٍّ، تشترطه تركيا علىٰ الصهاينة، وتقوم بتدشينه وتمويله؛ لو أُتيحتِ الفرصة.

(6) ضرورة التوقف عند السنن الربانية حتى نأخذ بأسبابها، ونحذر من التعرض لها:

من المعلوم أن هذا الكون محكوم بسنن ربانية، لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، وقد أرشدنا القرآن للنظر في السنن التي قد خلت من قبلنا، وأُخِذَ بها المكذِّبون؛ لنحذر أن نتعرض لها، فيصيبَنا ما أصابهم، وهي من الكثرة بحيث تحتاج إلىٰ إفرادٍ في مصنفٍ كبير.

ومنها **سنة الابتلاء** لتمييز الخبيث من الطيب، وليبتلي الله ما في صدوركم، ولِيُمَحِّصَ ما في قلوبكم، فيعلم الذين صدقوا، ويعلم الكاذبين، وليعلمنَّ الله الذين آمنوا، وليعلمن المنافقين.

ومنها **سنة التدافع**؛ إذْ لولا دفع الله الناسَ بعضَهم ببعضٍ لفسدتِ الأرض؛ بأنْ هُدِّمتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصَلَواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولذلك فإن الله قد أراد بجهادنا أولئك المفسدين أن يظهر فضله علىٰ العالمين.

ومنها **سنة الاستبدال**، وخلاصتها أن مَنْ تخلَّىٰ عن الجهاد بالمال، أو النفير بالرجال؛ فإن المولىٰ جلَّ وعلا سيعذبهم عذابًا أليمًا، فيسلط عَدُوَّهم عليهم، ويستبدل قومًا غيرهم، ثم لا يكونون أمثالهم، ولن يَضُرَّ الأَشِحَّةُ عليكم إلا أنفسهم، ولسوف يأتي الله بقومٍ يحبهم ويحبونه أذلةٍ علىٰ المؤمنين، أعزةٍ علىٰ الكافرين، يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم؛ فإنه إن يكفرْ بالتكاليف قَومٌ، أو يهملوها، فقد وكَّل الله بها قومًا ليسوا بها بكافرين.

ومنها كذلك **سنة الإمهال أو الإملاء**؛ بأن يمكِّن للذين كفروا حينًا من الدهر قبل أن يأخذهم أخذَ عزيز مقتدر؛ حتىٰ يَغْتَرَّ بعض الناس بتقلبهم في البلاد، ويقولوا من أشدُّ منا قوة؟!، أو يجوبوا الصخر بالواد، بأن ينحتوا الجبال بُيوتًا، ويصبحوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ويظنون أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون، أو أن ما لديهم من الحصون مَانِعَتُهم من الله ذي الكيد المتين.

إن أصل الإملاء في اللغة أن يُطيل صاحب الدابة حبلها؛ لترعىٰ أكثر، ومتىٰ سَمِنَتْ فإمَّا أرهق مَتْنَها بالأشغال والأحمال إذا كانت حمولة، وإما نزل عليها بالسكين إذا كانت فَرْشاَ؛ فهل يكون طولُ الحبلِ والرَّعْيُ الزائد كرامةً للدابة، أم مكراً بها؟!، ولذلك فإن إطالة عمر الظالمين والمجرمين، وإعطاءهم بعض التمكين، إنما كان ليزدادوا إثمًا، فيزدادوا عذابًا في الآخرة، ولتقوم عليهم الحجة في الدنيا، حتىٰ إذا أخذهم قصمهم، وجعلهم سَلَفًا ومَثَلاً للآخرين.

إن المطلوب في التدبر أن ننتبه إلىٰ السنن الربانية حتىٰ نحذر التعرض لها، وحتىٰ نُسَخِّرَها في أمانة الخلافة في الأرض، والشهادة علىٰ الناس؛ فإن الله لا يُغَيِّرُ ما بقومٍ حتىٰ يُغَيِّروا ما بأنفسهم، وما هي من الظالمين ببعيد، وكذلك يجزي المجرمين، بينما لو أن أهل القرىٰ آمنوا واتَّقَوْا لفتح عليهم بركات من السماء والأرض، وأنْ لَوِ استقاموا علىٰ الطريقة لأسقاهم ماءً غدقًا، ولو اسْتغفروا ربَّهم لأرسل السماء عليهم مدراراً، ولأَمَدَّهم بأموالٍ وبنين، وجعل لهم جناتٍ، وجعل لهم أنهارا.

(7) ضرورة التوقف عند الأمثال حتى نفهم المعنى الذي سيقت لإيضاحه:

من المعلوم أن الله عزَّ وجلَّ قد توسَّع في ضرب الأمثال للناس لعلهم يتفكرون، وتلك الأمثال يضربها للناس، وما يعقلها إلا العالِمون.

فقد ضرب المثل لأعمال الذين كفروا - مما يظنون أنهم به ينتفعون- برمادٍ اشتدت به الريح في يومٍ عاصف، أو بِسَرابٍ بِقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً، حتىٰ إذا جاءه لم يجده شيئًا، فقد قَدِمَ الله عز وجل إلىٰ ما عملوا من عمل، فجعله هباءً منثوراً، فهي عاملة ناصبة، لكنها تَصْلىٰ ناراً حامية، تُسْقىٰ من عينٍ آنية؛ ذلك أن من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها يُوَفِّ الله لهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يُبْخَسُونَ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها، وباطلٌ ما كانوا يعملون، ويقال لهم يوم القيامة: أذهبْتُم طيباتِكم في حياتكمُ الدنيا، واستمتعتم بها، فاليوم تجزون عذاب الهون ... إلخ.

ومن ذلك جَعْلُ مَثَلِ الحياة الدنيا في سرعة زوالها كماءٍ أنزله الله من السماء، فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيمًا تذروه الرياح، أو كغيثٍ أعجب الكفارَ نباتُهُ، ثم يهيج فتراه مصفَّراً، ثم يجعله حطامًا، فإذا بها تصبح حصيداً كأنْ لم تَغْنَ بالأمس.

ولعل أهمَّ ما ينبغي الانتباه إليه أن نتدبر وظيفة المَثَلِ في سياقه؛ حتىٰ يتجلىٰ المراد منه؛ ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر: 21).

فإن ظاهره أن الجبل يرىٰ نفسه أضعف من أن يقوم بتكاليف القرآن، فيشفق من الحساب والعقاب؛ فإن النار وَقُودُها الناس والحجارة، غير أن نزوله في سورة الحشر أو سورة بني النضير له معنىً أعمقُ من ذلك؛ فإن أولئك اليهود قد اتخذوا حصونًا، ما كان الصحابة يظنون أن أهلها يُهْزَمون، أومنها يُخْرَجون، وظنَّ اليهود أنهم مَانِعَتُهم حصونُهم من الله، لكنَّ الله جلَّ جلاله قد جعلها فَيْئًا لنا دون إيجاف خيلٍ أو رِكَاب، فقد أتاهم من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، يُخْرِبون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وقد بلغ بهم الرعب أنهم لا يقاتلونكم جميعًا إلا في قُرىٰ محصنةٍ، أو من وراء جُدُر.

وقد جاء هذا المثل ليقول: إن تمكين بني النضير لو كان يحاكي الجبال صلابة وقوة لكان حملة القرآن قادرين به أن يجعلوا تلك الحصون متصدعة من خشية الله؛ فإن الذين يخشون ربَّهم بالغيب، وهم من الساعة مشفقون، لا يَهِنون أمام الحصون، ولا يَضْعُفُون، ولا يستكينون؛ بل يظنون أنه كم من فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله، والله مع الصابرين، فيصبرون، ويصابرون، ويرابطون، فَيُلْقِي الله الرعب في قلوب الكافرين، ويُهْزَمون، فيكون هذا المثل قد جاء للربط علىٰ قلوب المؤمنين.

ونحن اليومَ في أمسِّ الحاجة إليه، بعد أن علا بنو إسرائيل في أرض فلسطين علواً كبيراً؛ حتىٰ نكون موقنين أن هذا القرآن يهدي لأقوم الطرق

لتتبير عُلُوِّ بني إسرائيل، وإن الذي فَرَضَ علينا القرآن لَرَادُّنا إلىٰ ديارنـا، وإننا لنرجو أن يكون ذلك في بضع سنين.

(8) الانتباه إلى التعقيب القرآني على القصص، سواء كان للأنبياء، أو لغيرهم:

من المسلَّمات أن القَصَص في القرآن ليس للتأريخ، إنما لِحِكَم أخرىٰ، ولقد كان في قصصهم عبرةٌ لأُولي الألباب، ما كان حديثًا يُفترىٰ، ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه، وتفصيل كلِّ شيءٍ، وهدىً ورحمة لقومٍ يؤمنون، وليثبِّت به أفئدة الذين آمنوا وهدىً وبشرىٰ للمسلمين، كما أنه من أنباء الغيب التي لم يكن يعلمها نبيُّنا عليه الصلاة والسلام هو ولا قومه من قبل هذا، كما أنه ما كان لديهم إذْ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون، وما كان لديهم إذْ يُلْقُونَ أقلامهم أيهم يَكْفُلُ مريم، وما كان بجانب الغربيِّ إذْ قَضَىٰ الله إلىٰ موسىٰ الأمر، وما كان بجانب الطور إذْ ناداه، وما كان ثاويًا في أهل مدين، وكلُّها من معجزات الإخبار بالغيب علىٰ صدق نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، وأنه من المرسلين.

ومن أمثلة ذلك تعقيبه جلَّ وعلا علىٰ قصة آدم في سورة الأعراف بقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الآية: 34).

فإن قصة آدم قد انطوت علىٰ احتيال الشيطانِ علىٰ أبوينا آدمَ وحوَّاء؛ لَيُبْدِيَ لهما ما وُورِيَ عنهما من سوءاتهما؛ لِعِلْمِهِ أنهما يعاقبان علىٰ الأكل من الشجرة بنزعِ لباسِهما عنهما، فلما ذاقا الشجرة بدتْ لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، ولذلك فقد نادىٰ ربُّنا بني آدم مُمْتَنًّا عليهم بإنزال لباسٍ يواري سوءاتهم، ويُزَيِّنُ هيئاتِهم، مخبراً بأن لباس التقوىٰ خير في ستر المعايب من اللباس الحسي في ستر العورات، ثم حذَّرنا من الشيطان أن يفتننا بنزع لباسنا عنا، كما فَعَلَ بأبوينا، وإنَّ خطورته في أنه يرانا هو وأعوانه من حيثُ لا ترونهم، فهو يزيِّن للناس سُوءَ أعمالهم، فيرونها حسنة، ثم أمرنا سبحانه أن نستر عوراتِنا، وأن نتزين عند كل سجود؛ إذْ نكون في حضرة الغفور الودود.

وقد جاء الحديث عن انتهاء آجال الأمم بعد ذلك؛ ليشير إلىٰ أن الأمم التي تفرِّط في الحياء، ولا تتمعَّر لانكشاف العورات، تدخل في مرحلة الزوال لانتهاء أجلها، وعندئذٍ لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون.

ووجه ذلك أنه إذا حصل السفور والتبرج، أو العُرْي والتكشف، انطلق سُعار الغرائز البهيمية، فيكون سقف الهمة في الحياة لأكثر الناس الوصولَ إلىٰ الجنس الآخر، والحصولَ علىٰ اللذة الحيوانية، فينهار نظام الأسرة، ولا يجد الشباب حاجةً إلىٰ فتح البيوت، وتختلط الأنساب، ولا يتشجع الناس للإنجاب، فضلاً عن استغناء كلٍّ من الزوجين عن صاحبه بما

يحصل من الإشباع بالتسوُّل أو التفلُّت، فضلاً عن انتشار الأوبئة والأمراض التي لم تكن في أسلافهم، وغير ذلك من العقوبات الفِطْرِيَّة، ولو لم يكن إلا تحوُّلُ المجتمع إلىٰ قطيع يسهل لأعدائهم أن يمتطوا ظهورهم، وأن يسوقوهم إلىٰ حتفهم، فيكون أجل الأمة قد انتهىٰ بانتهاء عِزِّها وتمكينها، وصيرورتها مملوكة لغيرها من الأمم والقوىٰ الاحتلالية، وقد يأخذهم ربُّهم بعذاب بئيسٍ بما كانوا يفسقون، فيهلكهم كما أهلك عاداً الأولىٰ، وثمودَ فما أبقىٰ، وقومَ نوحٍ من قبل، والذين من بعدهم، لا يعلمهم إلا الله.

(9) الاهتمام بدلالة الكنايات القرآنية وما وراءها من المعاني:

قد يمرُّ من يتلو القرآن بكثيرٍ من الكنايات اللطيفة في القرآن دون أن يتوقف عند بعض المعاني الكامنة فيها، فقد أَكَنَّ ربُّنا جل وعلا في كثيرٍ من التعابير ما يجعلنا بعد اكتشافها نُوقن أن كثيراً من ثمرات المعاني لا زالت في أَكْمامِها.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (البقرة: 187)؛ حيثُ جاءت هذه الكناية علةً لحلِّ الرَّفَث، أو مباشرةِ النساءِ في ليالي رمضان، وغيرِها من ليالي الصيام؛ فقد كنا مأمورين بمثل صوم الأولين؛ حيثُ يبدأ من العشاء عند غياب الشفق إلىٰ مغرب اليوم التالي، وإنْ غلبه النوم قبل العشاء امتنعَ الأكل والوطء حتىٰ لو صحا قبل مَغِيبِهِ، فشقَّ ذلك

علىٰ الصحابة، ووقع بعضهم في المحظور بالإفضاء إلىٰ زوجه، فكان سببًا في مَدِّ فترة الفطرِ إلىٰ الفجر؛ ليستمرَّ الاستمتاع إلىٰ السَّحَر حتىٰ لو أصبح جنبًا؛ فإن هذا لا يضير صحة الصوم ما دام قد نَزَعَ عنه قبل الأذان الثاني.

وقد فهم بعض الأئمة من تلك العلة كثرة الاحتكاك المُوقِع في الحرج؛ كالاحتكاك بين الثوب والجسد، غير أن الأمر أبعدُ غوصًا من ذلك؛ فإنها إشارة إلىٰ ضرورة خلع أحكام اللباس علىٰ الحياة الزوجية من حيث الطهارة، والنظافة، وستر العورة، وتزيين الهيئة، وما فيه من الدفء؛ فإن الله تعالىٰ جعل لكم سرابيلَ تقيكم الحرَّ، وتقيكم البرد من بابٍ أَوْلىٰ.

ولمَّا كان لكل واحدٍ لباسٌ يناسبه، فلباس العالِم ليس كثياب العسكر، وهكذا العمال يختلفون عن القضاة، فإن هذا يؤسِّس لضرورة مراعاة الكفاءة في النكاح، من حيث السن، والثقافة، والمستوىٰ الاجتماعي، وغير ذلك؛ فإنه يسهم في استقرار الحياة الزوجية، واستمرارها؛ إذْ يعيشان بالبهجة والشكر، فيتحقق السكن مع المودة والرحمة؛ بخلاف الفارق الفاحش في السن، أو الوعي، أو المستوىٰ الاجتماعي؛ فإن العيش يقوم بينهما علىٰ الصبر، وللصبر حدود، وقد يعصف عدم مراعاة الكفاءة بالحياة الزوجية عاجلاً غيرَ آجل، وقد علمتُ أن امرأةً حاملةً لشهادة جامعية قد أُكْرِهَتْ علىٰ الزواج من رجلٍ أُميٍّ عَرْبَجِيٍّ، فما كان منها إلا أن ضاقت به

ذرعـًا، فأقـدمت علىٰ ذبحـه دون أن تَتُلَّـهُ لِلْجَبـين، فَخَسِـرَتْ بـذلك الـدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

(10) التوقف عند دلالات المفردات والحروف، وما فيها من لطائف:

إن الإعجاز البياني للقرآن الكريم شيءٌ وراء الخيال، فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم في المفردات والتراكيب من قرة أعينٍ؛ فإن القرآن لا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ علىٰ كثرة الردِّ، ولا يشبع منه العلماء.

ومن أمثلة ذلك التعبير بالاحتناك في وعيد الشيطان للإنسان في قوله تعالىٰ: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: 62).

ذلكَ أن أصل الاحتناكِ هو وضع اللجامِ في حَنَكِ الدابة؛ فإنها مهما كانت شَموصـًا أو جموحـًا تصيرُ به ذلولاً، إذْ إنه عنْدَ جَبْذِهِ يؤلمها، فتنقاد لراكبِها حتىٰ يُرْخِيَ زمامَها، فتسلَمَ من الألم، وبذلكَ يكون هذا اللفظ قد صوَّر أولياء الشيطانِ وضحاياهُ مطايا؛ كالبِغالِ والحميرِ التي يُسَخِّرها صاحبُها كيف يشاءُ، ولنا أن نتخيَّلَ الشياطين التي يرسلها ربُّنا علىٰ الكافرين تَؤُزُّهم أَزًّا، فهم منقادون للشياطينِ انقيادَ الدوابِّ للراكبينَ، وهذا المعنىٰ ينسجمُ مع اعتبارهم كالأنعام؛ بل هم أضلُّ سبيلاً، فهم يتمتعون ويأكلون

كما تأكل الأنعام، والنار مثوىً لهم، ولسوف يَوَدُّون يوم القيامة لو تُسَوَّىٰ بهم الأرضُ حينَ تصيرُ البهائمُ ترابًا، فيتمنَّىٰ الكافر أن لو خُلق بهيمةً في الدنيا، وهو يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ (سورة النبأ: 40).

وقَد عَبَّرَ الشهيدُ سيد قطب رحمه الله عن مثل هذا بالتصويرِ الفنيِّ في القرآنِ، حيثُ إننا نلحظُ أن الوحي يكادُ يرسمُ بالكلماتِ لوحةً تنظر إليها العينُ، ويتملَّاها القلبُ، وهذا أدعىٰ إلىٰ إدراكِ المعانِي المقصودَةِ، بل والتأثُّرِ بها.

انظر صورة النفاق بمسجدٍ مُؤَسَّسٍ علىٰ شفا جُرُفٍ هارٍ، وتحته جهنم، ومتىٰ انهار وقع في النار، وبئس القرار، أو تلك الحفرة التي يسقط فيها من اعتذر عن الخروج لغزوة تبوك تخوفًا من أن تفتنه نساء بني الأصفر، والصحيح أنه كان مرعوبًا من مجابهة الروم، فيكون قد فَرَّ من رمضاء الوَهْمِ بالوقوع في الفاحشة إلىٰ نار الفرار من الزحف؛ فإنه إحدىٰ الموبقات السبع كما في سورة التوبة (109)، وانظر إلىٰ ذلك التشبيه المخيف وهو يصور التردي في دركات الشرك بمن يَخِرُّ من السماء، فتخطفه الطير، أو تهوي به الريح في مكان سحيق، كما في سورة الحج (31)، وحسبهم أنهم يصبحون به نَجَسًا؛ فقد تَدَنَّسوا بالرِّجْس من الأوثان، كما في سورة التوبة (28).

وفي الختام:

فإن مفاتيح التدبر للقرآن أكثر من أن تحصىٰ في ندوة، أو أن تحصر في عشر نقاط، فإن بعض المصنفين قد ناهز بها الثلاثين، ولو شاء أن يُتِمَّها بعشرٍ لاستطاع، وبذلك يتمُّ تعدادها أربعين فقرة.

وقد وجدتني مضطراً إلىٰ التوقف عند العشر؛ بل والاجتزاء في أكثرها بمثالٍ واحدٍ حَذَرَ الإطالَةِ، وعسىٰ أن يتيسر من الوقت والجهد، وأن يتوفر من العمر والمال، ما أتمكن معه من الكرَّة علىٰ هذا الموضوع، وإثرائه بالمزيد من المفاتيح، وتعميقه بفيضٍ من الأمثلة؛ لعله يُضيءُ مشكاةً فيها مصباح في بنيان التدبر الواجب لكتاب الله، وخاصةً في المواضيع المنثورة في ثنايا سُوَرِ القرآن، لاسيَّما العشرُ الطِوَالِ، أو تلك المنتشرة في المصحف كلِّه، مما له علاقة بموضوعٍ بعينه؛ حتىٰ يكون بمثابة تفسيرٍ موضوعيٍّ يتناولُ قضايا بعينها، وخاصةً فيما تمسُّ الحاجة إليه في واقعنا؛ تحقيقًا لمفتاح التنزُّلِ بالقرآنِ إلىٰ الواقعِ؛ ليكون نوراً

لنا نمشِي به في الناسِ، ولتأصيل قضايانا من كتابِ ربِّنا جلَّ وعلا، وما تيسَّر من سنة نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، مع الاستئناسِ بسيرةِ الصحابةِ رضوان الله عليهم؛ فقد تجسَّد القرآن في حياتهم إلىٰ حدٍّ كبير؛ ولكنهم غيرُ معصومين، غير أنهم خير أجيالِ البشريّةِ علىٰ الإطلاقِ، فقد رضي الله عنهم، ورَضُوا عنه، وأعدَّ لهم جناتٍ تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، وقد وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيمًا.

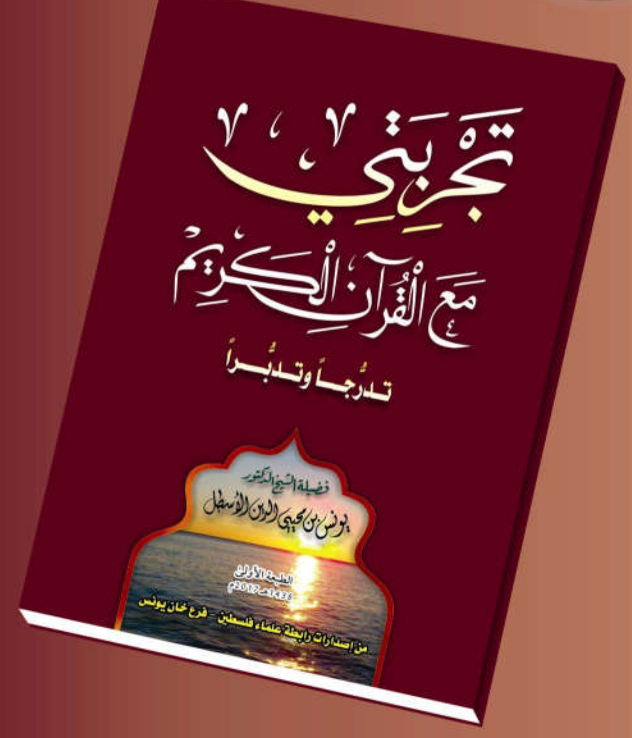
والله تعالىٰ أعلم.

وصلَّىٰ اللهُ علىٰ سيدنا محمدٍ، وعلَىٰ آلِه وصحبِه وسلَّمَ.

د. يونس بن محيي الدين الأسطل

الجمعة 8 شعبان 1438هـ الموافق 5 آيار 2017م


يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات
رابطة علماء فلسطين
فرع خان يونس


تجربتي
مع القرآن الكريم
تدرجاً وتدبراً
فضيلة الشيخ الدكتور
يونس بن يحيى الأسطل
من إصدارات رابطة علماء فلسطين - فرع خان يونس